هل أستحي ؟..

قصة بقلم ياسين رفاعية

كان علي ان أتسلل خارج الغرفة ، فان استهتار اخي المتزايد ، يغيظني ، وخاصة عندما تكون « نجاة » بين الحضور .

انها زميلة لاختي ، وهي تزورنا كثيرا مع زميلات اخريات ، واخي محدث لبق ، كثير النكات والملاحظات الذكية .

وجهها طفولي رائع . عيناها بنيتان ذكيتان . ذات أهداب طويلة منثنية ، شعرها كليل أسود فاحم ، مرتم على كتفها الايسر في ضفيرة حلوة . كان قلبي يخفق بشدة كلما رايتها في البيت . لم تكن تعيرني أي انتباه . عكس أخي الذي كانت تناقشه في امور شتى ، وتضحك لنكاته اكثر من المألوف ، وهي تثني عليه بين الفينة والفينة بلهجة محببة كزنابق الربيع « رائعة يامصطفى .. حلوة يا مصطفى .. » وكان يزداد تحمسا .. فيروي احيانا نكات باردة لاتستحق الضحك . ومع ذلك ، كانت « نجاة » تضحك بحرارة واخلاص .

ولقد تمنيت من كل قلبي ان يتزوجها أخي في المستقبل .. كي اكون بالقرب منها دائما وان ادفن احساساتي العارمة نحوها ، في صدري ، ولا ابوح لاحد بما يختلج فيه .

قال اخي

ـ تصوري يانجاة . لو أنهم يمثلون فيلما عربيا عن « احدب نوتردام » الا ترين ان اخي يصلح لهذا الدور تماما .؟ انه لن يكلفهم في « المكياج » شيئا .

التفتت نجاة ، واخواتي ، وبقية الفتيات نحوي ، كنت آنذاك قد فوجئت بملاحظة أخي . فشعرت ان سكينا ذات نصل مرهف راحت تمزقني .. اربا . اربا . ويبدو ان وجهي قد اضحكهن . فابتسمت خشية ان ألفت نظرهن الى غيظي . فاذا بضحكهن يزداد ضراوة .. كانت عيناي تشربان « نجاة » وهي تضحك . وقلبي ينقبض بكآبة مفجعة . كنت اتمنى ان افسر ضحكها على انها مسرورة فقط . لكن الحقيقة صدمتني بمرارتها . انها كلما تطلعت الى وجهي اغرقت في الضحك اكثر .. فأكثر .. بينما كنت اغرق بعنف في الم حاد .. اكثر .. فأكثر .

في تلك اللحظة شعرت بعاصفة تجتاحني من الداخل ، فوددت ان اقفز واصفع أخي . ثم اطرد الجميع من البيت . واقول لنجاة « انت حقيرة .. لاتستحقين حبي . اخرجي من بيتنا . اياك ان تعودي اليه .. » . لكنني لم أستطيع ان افعل شيئا . فلم اجد بدا من ان احاول التسلل من الغرفة . وانتظرت قليلا . ريثما يسود المكان الهدوء . كان اخي قد بدأ يتحدث حديثا جديا . لم اكن اتبين نوعه . كان همي آنذاك ان اجد طريقة للانسحاب دون ان الفت الانظار الى غيظي وألمي .

وفاجأني اخي يسألني : الا ترى ذلك صحيحا ياأحدب نوتردام ؟

قفزت من فوق المقعد . دون ان اتكلم او انظر الى احد . وخرجت من الغرفة كالقذيفة . ثم صفقت بابها بشدة . كانت ضحكاتهم المتواصلة تلاحقني ، حتى دخلت الغرفة الاخرى .

كنت انحرق غيظا . ان ثورة عارمة راحت تسحق مشاعري . كنت اود ان احطم كل شيء . وكدت امزق شفتي وانا أمضغها بأسناني . وبدأت اذرع الغرفة جيئة وذهابا . بينما كانت قطة اختي الصغيرة ترمقني بنظرات قاسية .. وفجأة . خطفتها من فوق الارض .ورحت اضغط بيدي على عنقها . كان مواؤها شديدا . حاولت ان تتخلص مني . وعندما لم تستطع . أنشبت أظافرها بيدي ، فقذفتها الى الجدار بشدة .

تكومت لحظات . ثم هبت تختبيء تحت السرير .. وهي تموء مواء حزينا خائفا .

كان الدم قد ارتسم كخيوط حمراء على ظهر راحتي . ولقد بدت لي الغرفة وانا اذرعها جيئة وذهابا ، كأنها سجن يكاد يخنقني . كانت بي رغبة ملحة ان اضرب الجدار برأسي . فالضحك مايزال يصل مسامعي من الغرفة المجاورة . ان نكات اخي لاتنتهي . وربما يحدثهن الان عني .

لهيب المدفأة المتصاعد ، وجو الغرفة الحاد . ودمي الذي يغلي في عروقي . هذه الاشياء كلها تجمعت لتجلعني بحالة لانطاق . وانا اندحرج كأطار ضخم من الكاوتشوك .

كنت طفلا لم اتجاوز العاشرة ، وكان الزمن شتاء عندما كنت نائما بالقرب من المدفأة التي كان عليها ابريق الشاي . كانت أمي تنتظر الماء ليغلي فتصنع لابي شايا . وغلى الماء حتى طفح خارج الابريق . واسرعت أمي لتحمله عن المدفأة . الا ان حرارة يده جعلتها تتركه يسقط بعنف على المدفأة ليندلق ماؤه على خدي وعنقي ناحية اليسار .

صحوت من نومي صارخا ، وانا اتخبط يمنة ويسرة « خدي .... عنقي . آه ياربي .. احترقت .. » كان لهيب الماء الحار يسلخ جلد وجهي . حتى عجزت عن الوقوف . كنت اصرخ . ودموعي تتدفق بغزارة . وكلما حاولت ان اقف .. كنت اتهالك على الارض وانا احس بألم فظيع . حتى .. حتى لم اعد اعي شيئا .

اخذوني الى المستشفى ، ولما اعادوني للبيت ، كان رأسي حتى

مؤخرة عنقي . كتلة من الشاش الابيض . كنت أتألم كثيرا . حتى انني لم اكن استطيع النوم .

وبعد مدة لست اذكرها . خلعوا عني الاربطة . كنت طفلا . فلم اهتم للتغيير الكبير الذي طرأ على وجهي .

ومع مرور الزمن . اصبحت ادرك الفارق العظيم بيني وبين أي مخلوق . وعلى الاخص ، بيني وبين اخي الاكبر . فقامتي قميئة متكومة على بعضها ككتلة من المطاط المضغوط . ويداي قصيرتان منتفختان . اما وجهي فقد زادته الحروق بشاعة . فعيني اليمنى بها حول شديد . اما من ناحية اليسار . فقد بدأ جلده المسلوخ مشدودا متداخلا في بعضه ، وشقوقه كالاخاديد حتى ان فمي اصبح ملتويا بعض الشيء الى جهة الحرق القديم . نتيجة للجلد المشدود حتى مؤخرة عنقي . فكان الكلام يخرج من فمي ممطوطا كأنه كلام أبله معتوه . ان مجرد نظري الى وجهي في المرآة ليرعبني حقا . لكنه ابدا لم يكن يثير الضحك . بقدر مايثير الرثاء .. بل .. الاشمئزاز.

اما اخي الاكبر ، فانه على العكس مني تماما ، فارع الطول . ذو جسد رياضي ، شعره مصقول كالحرير . وقد نال شهادته الثانوية العام الفائت بتفوق كبير . حتى انه كان في مقدمة المقبولين في الجامعة . اما انا فقد تركت دراستي الثانوية في سنيها الاولى . لم اكن استطيع تفهم الدروس جيدا . وكان الدافع الاكبر الذي دعاني لترك الدراسة ، انه لم يكن لي اصدقاء اقضي فترات الفراغ معهم . ولولا السجاير التي كنت ادخنها منذ دخلت المدرسة الثانوية ، لما كان زميلي في المقعد يجاملني حتى يحصل على سيكارة .

وكان يغيظني كثيرا قولهم : ان الابناء يتشابهون . فانا شاذ عن جميع اشقائي . ولست ادري سببا لذلك .

انني اشارك اخي غرفته . مما حداه ان يجعلني تسليته . وكثيرا ماكان يقول لي : الا يخاف منك رفاقك العمال ياأحمد ..؟ وعندما كان يلمح بي غيظا كان يقول : لا تزعل ... انني امزح معك .. الا تحب المزاح ..؟

كنت اعرف انني لاأستطيع ان اتحداه . فان ضربه واحدة من قبضة يده كافية لتكسرلي فكي . ولقد بدا لي اخي منذ راح يعاملني معاملة المتفوق علي ، بغيضا الى نفسي . وعندما ادرك انني أتألم كثيرا من مزاحه الثقيل اصبح يستغل ذلك على مسمع من امي واخواتي البنات اللواتي كن يقضين حاجاتهعن حب ويقضين حاجاتي عن رهبة . او هكذا خيل الي.

وكان هو يأمرني كثيرا لقضاء حاجاته . كنت احيانا اتمرد .فاقول له : الا تكف عن هذه المعاملة .. انني اصبحت كبيرا .. فيضحك كأن احدا يدغدغه من جنبيه . ثم يقول : انك لن تكبر ابدا .. ستظل هكذا صغيرا . ويشير الى ذلك بساقه التي يرفعها قليلا عن الارض . وكانت اخر طاقة احتمالي هذه الليلة ، فقد جاءني بتسميات جديدة ليضحك الناس الاخرين .. وقررت ان اضع حدا لهذه المأساة .. الليلة بالذات .. وليكن بعد ذلك مايكون .

عندما دسست جسدي المضغوط تحت اللحاف ، كان الخاطر الرهيب قد تأصل في ذاتي وصار يلح علي الحاحا غريبا . لم أنم كنت أهتز فزعا . كانت عيناي منفرجتين . حتى اعتدت الظلام . وصرت ارى كل شيء واضحا في الغرفة . كان اخي في السرير الاخر يغط في نوم عميق والساعة التي يضعها بجانب سريره تدق دقات رتيبة . لكنها في للحظات الاخيرة ازدادت سرعتها وكأنها تريد ان تتسابق مع خلجات قلبي العنيفة .

شددت من عزيمتي . ثم تركت سريري وبيدي الوسادة .واقتربت من سريره . كان نومه .. عميقا .. وقد تهدلت بعض خصلات من شعره على جبينه . وعلى ثغره كانت ترتسم ابتسامة هادئة . وبسرعة . تخيلت فيما لو نفذت ماعزمت عليه فماذا ستكون النتيجة. لم يخفني السجن بقدر ماأخافني حزن أمي واخواتي . انهم يحبونه حتى العبادة . انا اعرف انهم لايكرهونني ايضا . لكنني متأكد انهم يحبونه اكثر مني . ويبنون عليه آمالهم الكثيرة .. سيكون طبيبا . وستتحسن حالنا . خاصة وان ابي قد بلغ من الكبر عتيا .

تحرك اخي قليلا . ففزعت ، وعدت الى سريري وانا العن هذا الخاطر الشيطاني الذي انتابني .

تلك الليلة ، لم انم نوما هادئا ، كانت تجتاحني احلام مرعبة هائلة. وانني لاذكر جيدا الحلم الاخير الذي كنت اصرخ فيه بصوت عال وانا اضغط على عنق اخي « سأرتاح من احدب نوتردام » وانتهي منك » .

كانت عينا اخي الجاحظتان ترمقانني بقسوة . ولقد بدا لي انه عاجز عن الحركة كان يحاول ان يخلص رقبته من قبضتي . وهو يقول بصوت مخنوق كأنه الهمس « لا .. لا .. لاتقتلني ياأخي . لاتقتلني . احمد . انت اخي . كيف تقتلني ..؟ » .

لكنني لم أستمع اليه . ظللت اضغط واضغط .. حتى بدأ يتهالك رويدا رويدا .بينما كانت قطة اختي الصغيرة تموء مواء متقطعا حزينا . واصطبغ وجهه بون ازرق باهت . وبرز الزبد من بين شفتيه . وبدت لي عيناه ككتلتين من جمر . وراحت مقاومته تضمحل شيئا فشيئا .. ثم .. ثم انهار .

عندئذ ، شعرت بفظاعة العمل الذي ارتكبته ، فهبطت على ركبتي بالقرب من جثته . ورحت أهزه بعنف « أخي .. أخي .. مصطفى . استمع الى .. ارفع رأسك قل لي احدب نوتردام . قل لي ماتشاء .. أخي .. مصطفى .. »

لكن مصطفى لم يتحرك . بل ظل جامدا هامدا لاحياة فيه . فمددت يدي الى شعره الناعم . وغرزت اصابعي في حناياه . ثم رحت ابكي بحرقة ، بكاء لم اكن اعهده من ذاتي ابدا . كنت ابكي وشيء ما يقبض على قلبي . ويهصره بعنف .

وصحوت على يد تهزني :احمد .. احمد . قم مابك .. احمد .

عندما رفعت رأسي عن الوسادة المبللة بالدمع ، كانت عيناي ماتزالان تسحان بالدموع . واذ بي وجها لوجه امام اخي . وقد ارتسم على محياه قلق مشوب بحنان عميق . ثم مد يده وصار يمسح دموعي المنسابة بباطن كفه . ثم قال :

ـ احمد .. احمد . هل انت بخير ؟

دمشق — ياسين رفاعية

من « جمعية الادباء العرب »

طبعت على مطابع :

دار الغد للطباعة والنشر

تلفون : ٢٢٩٢١